«الحرب العراقية-الإيرانية وفرز القيادات العربية ... نحو الثورة القادمة»

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

نعم سوف أظل عربيًا .

نعم يا بنى ، سوف أظل أصرخ بتفاؤل وشمم ، ولن يقلل من هذا الإيمان تلك الرائحة العفنة التى تهب علينا وتحيط بنا من كل جانب . مما لا شك فيه أننى أول من يعلم أنه لم توجد حركة كبرى لم تعرف الخيانة أو التردد أو الاستسلام ، وكما أنبتت الثورة الفرنسية نابليون بونابرت ، فهى التى خلقت « فوشيه » ، هل تعرف من هو «فوشيه» ؟ وزير الداخلية الذى أمسك بالأمن الفرنسى فترة الانبعاث الثورى ثم فترة البناء الامبراطورى ، ومع ذلك هو الذى كان يسجل التقارير الواحد تلو الآخر لأعداء «فرنسا»، والذى حصل على ثمن الخيانة عقب ذلك من الحلفاء الذين أذلوا دولة الحرية والإخاء والمساواة[1] ليعمل أيضًا وزيرًا لداخلية لويس الثامن عشر ، ولم توجد حركة دافقة أعادات مجرى التاريخ وحققت أهدافها دون بحار من الدم التى سالت لتنظيف مسارات الوجود الإنسانى ألا تعلم أن الإنسان كان وسوف يظل دائمًا هو . . هو لم يتغير ، إن البطولة استثناء وتلك النماذج المنتشرة حولك ، هى أيضًا جزء من قصة الإنسان ولو لم توجد . فمظاهر الفساد والخيانة موجودة ولو لم توجد ، فلماذا وجد الأنبياء ؟ ولماذا التاريخ عامر بالتضحيات ؟ ولماذا تلك الشخصيات الكبرى تأتى وتذهب لتترك من خلفها صفحات كتبت بالدم وبالنار ؟ . **الطفيليات التى تنتشر فى وطننا العربى ، والتى تتسلق على جدران السلطة ، والديدان التى تلتف حول حائط المنفعة ليست هى مأساتنا الحقيقية**

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 101 ، فى 15 نيسان - مايو - 1985 ، ص 26 وما بعدها . .

(1) وهى شعارات الماسونية ، اليهود فى المعسكر الشرقى ضمن سلسلة أبناء يهوذا فى الخفاء ، داؤد عبد العفو سنّقرط ، دار الفرقان عمان 1983 ، وأيضًا بقية السلسلة 1 ، 2 ، 3 .

obeikandl.com

ولكنها تلك القيادات التى تتشدق بالبطولة وهى ليست سوى قشور لا يتردد الواحد منهم فى أن يبيع شرفه وكل ما يملك من قيم - إن وجدت - مقابل ثروات زائلة وصفحة لهو تافهة أو قصة غرور أجوف .

نعم يا بنى كم زعيم تشدق بالمثاليات وجعل منها عنوانًا لوجوده وهو لا يعرف تلك المثاليات ولا يؤمن بها . ومع ذلك فكم صمدنا وكم تجاهلنا ! أليس هؤلاء جزء منا ؟ وأليس هؤلاء الزعماء والقادة صفحة تمثل وجودنا وتحمل اسم أمتنا ؟ ولكن هناك لحظات يتوقف فيها قلب التاريخ عن الخفقان : إنها لحظات حاسمة حيث ما قبلها يختلف عن ما بعدها ، إنها إعلان عن انتهاء مرحلة بما لها وما عليها وبداية مرحلة جديدة ، فى تلك اللحظات يكون الصمت جريمة والتجاهل جبنًا ، ويتعين على المفكر أن يأخذ بيده مسار الأحداث ، فيصرخ بالحقيقة واضحة ، ليسمِّى كل شىء باسمه ، لا موضع للتردد ولا مكان للتستر ، هذه اللحظة التى تُضْرَب فيها بغداد بصواريخ قدمها زعماء عرب إلى أعداء القومية العربية هى من تلك اللحظات التى يتوقف فيها قلب هذه المنطقة ليعلن انتهاء صفحة وبداية صفحة جديدة بكل ما يعنيه ذلك من قوة وعنفوان [1] .

لا تظن يا بنى أنى أتحدث بلغة العاطفة ، أو أننى أترك مشاعر الانفعال تسيطر على فكرى ، وأنا أسطر هذه الكلمات . إننى لا أعلن إلا صوت التاريخ بكل ما يعبر عنه من قوة التطور وبكل ما يعنيه من عظمة وشموخ ، وبكل ما يقدمه من تمزق ومآس .

ولكن فلنبدأ من المقدمات :

أولاً : أول ما يعنينا أن نؤكد عليه ونوضحه بصراحة ووضوح هو **أن أحد أبعاد الصراع الدولى حول المنطقة العربية هو استغلال القوميات غير العربية كأدوات لمنع تلك القومية من التكامل** بل من التواجد ، هذه الحقيقة ليست حديثة ولا تعود فقط إلى الأمس القريب ، إن أول من صاغها بوضوح السياسة البريطانية ومنذ بداية القرن العشرين ، وهو أمر معروف فى استراتيجية التعامل مع القوى ذات الوزن والكثافة ، المحيطة بالجسد العربى باسم مبدأ « شد الأطراف » ؛ بل إن هذا المبدأ طُبِّق منذ القرن التاسع عشر وبصفة خاصة خلال النصف الثانى من ذلك القرن مع مصر من الجانب البريطانى ، تشجيع القوى المحلية على أن تنال من أطراف الكيان القومى ذلك يفرض على الكيان أولاً الانغماس فى مشاكله الداخلية وثانيًا فقد جزْء من قوته وفاعليته . « إسرائيل » وريثة السياسة البريطانية ، تطبق هذا المبدأ بحنكة واضحة منذ بداية وجودها . وقد أفردنا لذلك مؤلفًا كاملاً بهذا العنوان مدعم بالوثائق المنسوبة إلى مركز الأبحاث الاستراتيجية فى جامعة تل أبيب .

(1) لا يزال الدكتور حامد ربيع هنا يتحدث عن الحرب العراقية الإيرانية .

ثانيًا : لم يعد موضع مناقشة أن ثورة الخمينى إن هى إلا رداء يختفى خلفه الدين . وقد استطاعت قوى معينة أن تلبس هذه الحركة رداء مصطنعًا ، أوقعت الكثير من المفكرين فى الخطأ والقناعة بأن هذه الثورة تعنى حركة تحرر للعالم الثالث . إن ثورة الخمينى فى جوهرها ليست سوى حركة سياسية ترمى إلى أهداف معينة تقف خلفها ، ليست فقط القوى الإمبريالية ، بل وكذلك وبصفة أساسية الصهيونية الإسرائيلية[1] . وهى تسعى من خلال عمليات تمويه مقنعة متعددة لأن تحقق أهدافًا ثلاثة متتابعة وكل منها تقدم للأخرى : تفتيت القدرة العربية ، ثم التدخل فى ثروات منطقة الخليج ، ويكتمل المخطط بتفتيت نفس الدولة الإيرانية . هذا المخطط الذى بدأ مع الشاه ،والذى لم يستطع أن يطوع لأهدافه الشاه نجح مع تلك القيادات الساذجة التى تحكم إيران . وهو لو ترك دون مقاومة سوف ينتهى بالقضاء على نفس الوحدة القومية الإيرانية ، بأن يفجر تلك الدولة إلى العديد من الدويلات ، بحيث تستطيع الصهيونية أن تتحكم أيضًا فى تلك المنطقة ، وإذا كان لا يعنينا فى هذا المجال وليس من واجبنا أن نذكر القيادات الإيرانية بمسؤولياتها إزاء شعوبها ؛ فإن الأمر الذى يوجب أن نقف إزاءه بكثير من الصرامة هو موقف القوى العربية المتعاطفة والمناصرة للحركة الخمينية . إنها تلعب دورًا مشبوهًا ، ويجب أن تحاسب ليس فقط لأن واجبها الحقيقى هو أن تساند الشعب العراقى، ولكن لأن التزامها القومى فى أن تقف حائطًا منيعًا ضد النفوذ الصهيونى ، إن الحرب الدائرة بين العراق وإيران هى حرب لطرف ثالث . والشعب الإيرانى يؤدى من خلالها دور الوسيط . وعلى القيادات الليبية والسورية أن تعى ذلك وتفهمه بلغة لا تحتمل الغموض .

ثالثًا : كذلك فإن أى محلل للقومية العربية فى تطوراتها المعاصرة لا يستطيع أن يدفن رأسه فى الرمال . فالمتتبع للأحداث التى نعيشها لا بد أن يلحظ بكثير من الأسى كيف أن موجة المد القومى قد بدأت فى الانحسار منذ 1967 ولنتذكر أهم المظاهر .

أ – احتلال الأرض الفلسطينية وسيناء عام 1967 .

ب – خروج مصر من الصف العربى ابتداء من عام 1975.

جـ – التمزق اللبنانى – وبصفة خاصة – عقب اتفاقيات « كامب ديفيد » .

د – التحالف غير المعلن بين « دمشق وتل أبيب » الذى انتهى بالتحطيم العسكرى للمقاومة الفلسطينية واحتلال أول عاصمة عربية من الجانب الصهيونى « بيروت » .

هـ – اختفاء القدرة البترولية العربية ، أو على الأقل تقلصها وبصفة خاصة عقب

---

(1) ظاهر الأحداث تقول غير ذلك ، ولكن الأمور ليست بظواهرها .

تفكك منظمة الأوبك ، وما يعنيه ذلك من عدم إمكانية استخدام سلاح البترول كأداة حاسمة فى إدارة الصراع العربى – الإسرائيلى .

ترى هل الحرب العراقية الإيرانية تأتى وتختتم هذه الصفحة ؟ وهل يأتى ضرب بغداد ليعيد فرز الأوراق وليبرز بوضوح موضع كل قائد من شعبه ، وموضع كل قيادة عربية من جماهيرها ، وليفرض على الإرادة العربية ثورة جديدة لم تكتمل عناصرها بعد ؟

سبق أن طرحنا كيف أن تحليل القومية العربية يفترض دوائر ثلاث : **مفاهيم أو مدركات ، ثم مواقف أو تعامل مع المشاكل ، ثم سياسات أو مجموعة مبادئ مرتبطة بالتعامل مع القومية موضع المناقشة البعيد المدى** ، وكيفية تنفيذ ذلك التعامل وتحقيق الأهداف المستترة خلف ذلك التعامل ، ورأينا أن المدركات يجب أن تسبق المواقف وأن السياسيات لا بد أن تتبع هذه المواقف وتنبع منها . كذلك لاحظنا أن المنطق العلمى كان يفرض علينا التحليل بتتابع منطقى من منطلق المدركات وانتقالا للمواقف وانتهاء بالسياسات. ولكن الأحداث فرضت علينا أن نخالف هذا المنطق من حيث جوهره عندما اضطررنا لأن نقف إزاء السياسة الأمريكية بالمناقشة والتساؤل ، واليوم نجد الأحداث تفرض علينا مرة أخرى ، أن نبكر بتحليل أحد المواقف ، قبل أن نتعامل بتصفية كلية للمدركات التى ينبع منها مفهوم العروبة السياسى . السؤال الذى نطرحه بصراحة ودون مواربة : **أين القيادات العربية من حرب الخليج ؟**

لو أن القيادات العربية كانت واعية بمفهوم الأمن القومى العربى وبما يفرضه ذلك المفهوم من متغيرات لكان عليها أن تحترم التزامات ثلاثة بصدد أمن الخليج :

أولاً : التزام واضح لدول القلب ، أى « سورية ، ومصر ، والسعودية » بحماية أمن منطقة الخليج ، إن أمن هذه المنطقة جزء لا ينفصل عن الأمن العربى . ودول القلب ذات الكثافة السكانية هى ، وهى وحدها التى يقع عليها عبء ذلك الدفاع . الذى يحدث أمام أعيننا هو نفى واضح وتهرب صريح من الالتزام . فالسعودية تعتقد أنها قادرة على أن تلعب لعبة مزدوجة ، وهى على كل لا تفعل سوى أن تقدم مساندة مالية كما لو كانت حرب الخليج تقع فى المحيط الأطلسى ، « ومصر » صوتها عال وفعلها قليل . أما «سورية» فقد أضحى موقف حكامها مصدراً للخجل والاشمئزاز الذى لا بد وأن يسيطر على كل مؤمن بالعروبة .

ثانيًا : كذلك فإن دول منطقة الخليج كان يجب أن تفهم بوضوح حقيقة المخاطر التى تعيشها ، وأن تخطط تبعًا لذلك بتوافق تام مع دول منطقة القلب ،

بحيث تحيل الضعف إلى قوة الذى يشنف آذاننا فحسب هو اجتماعات مجلس التعاون الخليجى وكل خبير عسكرى يعرف ماذا يمثل ذلك المجلس من قدرات عسكرية حقيقية .

ثالثًا : وكان على القيادات العربية أن ترتفع عن المهاترات الفردية ، وأن تدرك أن مفهوم الأمن القومى العربى بما يعنيه من تصنيف للأصدقاء والأعداء لا يجوز أن يخضع لمزايدات أو اجتهادات ، فهل يتعين علينا أن نذكر القارئ بتحفظات ممثل النظام السورى فى جامعة الدول العربية بصدد شجب السلوك الإيرانى ؟ وهل يتعين علينا أن نتساءل عن حقيقة موقف ليبيا والجزائر واليمن الجنوبى من هذه المأساة ؟

الحرب العراقية الإيرانية فجرت مفهوم الأمن القومى العربى ،وهى تفرض اليوم تطورًا نعيش أول منحنياته ، يفرض إعادة تشكيل هذا المفهوم . ويكفينا من ذلك التطور إبراز مجموعة من الحقائق نطرحها فى هذه العجالة ، بهدف واحد وهو دعوة القيادات المسؤولة التى أبرزت أحداث بغداد مدى ماتتصف به من عدم وعى ، وعدم شعور بالمسؤولية ، لأن تعيد التفكير فى موقفها :

1 – **أول ما يلفت النظر** هو ذلك التحالف العجيب بين طهران ودمشق . والتساؤل الذى لابد أن يطرحه كل محلل حيادى : كيف يمكن لمثل هذا التحالف لأن يصير بعيد المدى وسورية دولة تتصف بالعلمانية وتقف من الأخوان المسلمين موقف الصراع المميت ؟ ترى هل تساءل حاكم دمشق ما كان يمكن أن يحدث لو أصابت العراق هزيمة أيًا كان صورتها ؟ نتائج ثلاث لابد وأن تترتب على ذلك :

أولها : تعرض العراق للتقسيم والتجزئة .

وثانيها : سقوط جميع الأنظمة العربية فى المشرق العربى ، بما فى ذلك النظام السورى وليتذكر حكام دمشق أن الأخوان المسلمين فى سورية أقرب إلى منطق الخمينى من حزب البعث السورى .

وثالثها : تقوقع مصر على نفسها وتخليها عن وظيفتها القيادية فى المنطقة .

2 – **الناحية الثانية التى تدعو بدورها للتساؤل** ، الموقف السلبى من جانب القيادات المصرية . إن حرب الخليج بخصوص « مصر » لابدّ أن تؤدى إلى ثلاث نتائج كل منها كان يفرض على مصر اهتمامًا من نوع آخر . من جانب إضعاف الامتداد الأفقى للمنطقة الممتدة من شرق مصر حتى الحدود الإيرانية ولنتذكر أن هناك ترابطًا بين أمن البحر الأحمر وأمن الخليج ، واضطراب الملاحة فى البحر الأحمر لاتزال أحداثه ساخنة . ثم من جانب ثان تعريض وظيفة مصر الإقليمية للتقلص ، وفرض عملية انكفاء داخلى على « القاهرة » تعيد

للذاكرة المرحلة التاريخية التى عرفتها منطقة وادى النيل عقب اكتشاف طريق رأس[1] الرجاء الصالح . ثم من جانب ثالث فتح المجال لتقسيم المشرق العربى بين قطبين جاذبين للنفوذ : القطب الإيرانى من جانب ، والقطب الإسرائيلى من جانب آخر .

3 - قيادات منطقة الخليج بدورها تفرض علينا علامات تعجب عديدة ودون استثناء المملكة العربية السعودية : اتجاه القوات الإيرانية إلى « البصرة » والإصرار على تدميرها كان يجب أن يكون بمثابة الناقوس الذى يجب أن يدق فى ذهن القيادات العربية فى هذه المنطقة عن حقيقة الأهداف التى تستتر خلف هذه الموجة من الفيضان الإيرانى نحو الوطن العربى ، مما لا شك فيه أن تلك القيادات ظنت فى لحظة معينة أنها قادرة على تطويع الثورة الإيرانية بصفة خاصة بفضل المساندة الأمريكية ، ولكن هذا خطأ وسذاجة . **لأن هذه القيادات يجب أن تعلم أن التسرب فى منطقة الخليج لن يأخذ صورة الحرب المباشرة والصراع العضوى ، وإنما سوف يستمد أدواته من فكرة التسلل من خلال الطابور الخامس ، والتنظيمات الداخلية المنتشرة فى جميع أجزاء المنطقة . وعلى قيادات منطقة الخليج ، أن تعلم أنها لن تكون أقوى من شاه إيران ، فى مواجهة الأحداث المقبلة . وعليها منذ الآن أن تعد نفسها للمواقف القادمة بحنكة وبُعد نظر بل من منطلق مصالحها الذاتية . فهل من مستمع ؟ .**

إن القيادات العربية لا تزال تعيش فى إدراك يسوده مفهوم عدم المسؤولية عن الحركة، مفهوم عرفته شعوبنا منذ أكثر من نصف قرن . هذه القيادات لا تريد أن تعى كيف أن هذا العصر قد انتهى إلى غير رجعة ، هناك شعوب سوف تُحاسِب ، ورأى عام قد تكون سوف يدقق ، ووعى وضمير جماعى ، حتى لو لم يستطع أن يرتفع إلى مستوى القدرة على المساءلة المباشرة ، فهو قادر على أن يرسب فى ضميره ، وداخل ذاكراته الجماعية انتظاراً لتلك اللحظات التى يقف فيها من حكامه موقف القاضى والحكم ، **فمتى تعى تلك القيادات معنى هذه الحقائق ؟ هل لا بد من ثورة عارمة تطيح بهذه العناصر الهشة التى أضحى واضحًا أنها لم تعد تنتمى إلى صراعنا ولا إلى قضيتنا ، وقد آن الأوان لأن نقتطعها بعنف ودون تردد من كياننا السياسى ، وقد أضحت عاراً فى جبيننا القومى ؟**

وإن غداً لناظره لقريب .

(1) الكشوف الجغرافية كانت حروبًا صليبية هدفها تطويق العالم الإسلامى ، وكان شعارها الصليب أو المدفع ، وقد خرج الاستعماريون من أبناء أوربا لغزو العالم الإسلامى بعد أن قسم البابا الكرة الأرضية بين الأسبان والبرتغال (معاهدة تورد سيلاس) ، معتمدين على الملاّحين المسلمين والخرائط التى أعدها المسلمون لتلك البلاد التى كانت معروفة للمسلمين ، بل إن المراكب وأدوات الملاحة كانت إسلامية . ولقد كان قائد رحلة فاسكودي جاما ، ابن ماجد العربى وحينما وصل إلى رأس الرجاء الصالح قتل فاسكودى جاما ابن ماجد وقال كلمة تتناساها كتب التاريخ : الآن طوقنا العالم الإسلامى وما علينا إلا أن نشد الخيط ليختنق .